

دور رجال التصوف في نشوء المدن: مدينة الأبيض سيدي الشيخ نموذجاً

بوطيبة عبد الغني
أستاذ علم الاجتماع
عضو مخبر الفكر الإسلامي في الجزائر
جامعة ابن خلدون، تيارت

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى إلقاء الضوء على دور رجال التصوف في نشوء الحواضر، وذلك من خلال استعراض حالة مدينة الأبيض سيدي الشيخ بولاية البيض. هذه المدينة التي تميزت منذ تأسيسها باعتبارها مدينة التصوف. فقد مكنتها تميزها الصوفي عن غيرها إذ أن مؤسسها سيدي الشيخ صوفي، ومن سبقه في اختيار موقع المدينة هو جده سليمان بن بوسماحة صوفي أيضاً. فمن خلال تسمية مدينة الأبيض سيدي الشيخ كونها تحمل شيقين الأول "الأبيض" وهي ترتبط بصفة تربة البئر الذي أنشأه الولي الصالح عبد القادر بن محمد بن سليمان بن بوسماحة، أما الشق الثاني من تسمية المدينة "سيدي الشيخ" يرتبط بكنية الولي الصالح عبد القادر بن محمد بن سليمان بن بوسماحة، وبالتالي يمكن التطرق لمرحلتين في مراحل نشأة المدينة ارتبط كلاهما برجال التصوف وكان لهم الدور المباشر في ظهور هذه المدينة.

الكلمات المفتاحية : رجال التصوف، الحواضر، المدينة، الأبيض سيدي الشيخ، سيد الشيخ، الزاوية، القصر.

مقدمة:

إن تناول قضايا التحضر المرتبطة بالمدن الجزائرية يستوجب الأخذ بالاعتبار تلك الخصوصيات البيئية والتاريخية الثقافية للمدن ، ويتأتى ذلك من خلال قراءة سليمة لتاريخ تحضر المدن وكيفية نشأتها و نموها وكذا العوامل التي ساهمت في ذلك. كونها ثمرة لتطور تاريخي بعيد المدى نتجت عن غرس مدني نشأ تلقائياً أو بمطلب ذاتي ⁽¹⁾ ونظراً لطبيعة تكوين الدولة الوطنية ورقعتها الجغرافية المترامية الأطراف، وتباين أقاليمها وتنوع خصائصها المناخية والطبيعية، وكذا خصوصياتها التاريخية الثقافية، فقد تباينت مراكزها الحضرية من حيث النشأة والوظيفة حيث نجد مدن عسكرية وسياسية وإدارية ومدن دينية. وبالتالي يصعب فهم أي مدينة بدون الرجوع للخلفية التاريخية. وبما أن علاقة الدين بالمدن علاقة قديمة، حيث كان الدين عاملاً لنشأة كثير من المدن فقد ارتبط نشوء كثير من المدن الجزائرية بالعامل الديني .

مدينة الأبيض سيدي الشيخ إحدى هذه المدن الجزائرية المتميزة بطابعها الصوفي في صيرورتها التاريخية وخصوصيتها الاجتماعية، حيث كانت نشأتها دينية ارتبطت برجال التصوف. اعتبارا لكل ما ذكر تأتي هذه الدراسة للكشف عن الخصوصية الحضرية لمدينة الأبيض سيدي الشيخ من خلال قراءة سليمة لتاريخ تحضرها وكيفية نموها والعوامل التي ساهمت في ذلك.

1 - التصور التاريخي لنشأة المدن:

يُعتبر التصور التاريخي أحد اتجاهات علم الاجتماع الحضري والذي يهتم بتصوير تطور أشكال المجتمعات المحلية الحضرية الأولى، كما يُعنى بدراسة انتقال المناطق الريفية إلى مناطق حضرية وكذا التطور والانتشار الثقافي والحضري.

وأهم من تبنى هذا التصور جراس N.Grass ولوتش Loche وهاريس وأولمان OlmanHarris

عندما تناولوا الجذور التاريخية للمناطق الحضرية وتتبع تطوراتها وطبيعتها وتنوعها وخصائصها. ويُعتبر إسهام جوردن تشيلد Child من أهم المحاولات وأشهرها حيث قام بتحديد ملامح (الثورة الحضرية المبكرة) التي من بينها الاستيطان الدائم في صورة تجمعات كثيفة وبداية العمل بالأنشطة غير الزراعية وإقامة المباني الضخمة وتطور الكتابة وبعض المعارف والعلوم.

كما اهتم لويس ممفورد L.Mumfor بالتطور التاريخي للحياة الحضرية والثقافة الحضرية؛ فقد أوضح في كتابه "ثقافة المدن" سنة 1938 أن مراحل تطورية ارتبطت بنماذج المجتمع الحضري اتسمت بخصائص ثقافية معينة.

2 - النظرية الحضرية الأوروبية:

اهتم الأوروبيون بجمع المادة التاريخية عن المدن القديمة من منطلق أن المجتمع الإنساني نتاج تاريخي تطوري وأن تفسير الأحداث الاجتماعية يكون باكتشاف أصولها الضاربة في أحداث الماضي، لذلك قدمت النظرية الأوروبية تفسيراً نظامياً عن المدينة، بمعنى أنها صورت الخصائص المميزة لأي وحدة من وحدات الحياة الاجتماعية بخاصة المدينة تتحدد عن طريقة الأولوية التاريخية لنظمها، وهذا ما أدى إلى تفرغ وتنوع النظرية في اتجاهات متعددة فتباينت من طلائعها المتخذة للأساس الذي نظر إليه كنظام محدد لحياة المدينة⁽²⁾.

فوستيل دي كولانج F.D.Coulanges: اتخذ من النظام الديني محددًا لتفسير نشأة ونمو المدن القديمة، فقد أوضح في كتابه "المدينة العتيقة" سنة 1956 أن النظام الديني هو أساس عملية التحضر، حيث انطلق من تناول الأسرة التي اعتبرها النواة الأساسية للمجتمع السابق على التحضر حيث أنها حققت تكاملها

من خلال الرموز الدينية. هذا التكامل الذي أدى بالتدريج إلى إتحاد الأسر الذي بدوره أدى إلى نشوء البطن أو العشيرة ثم القبيلة وأخيرا المدينة.⁽³⁾

ماكس فيبر Max Weber: انتهج فيبر في معالجته للمدينة من خلال كتابه "المدينة" سنة 1905 منهجا يختلف تماما عن ذلك الذي تبنته الدراسات السابقة والمعاصرة؛ فقد اتجه للبحث عن الظروف التي تجعل دور المدينة ايجابيا وابتكاريا في الحياة العامة للإنسان.⁽⁴⁾ كما حاول فيبر تبرير ظهور المدينة في ضوء السياق الاجتماعي، أي في ضوء الأشكال المختلفة للتنظيم الاجتماعي، حيث تطرق إلى عدد من المفاهيم الأساسية التي لها صلة "بالمجتمع المحلي" كالأفعال الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية والنظام الاجتماعي كما وضع فيبر "النموذج المثالي لظروف المدينة" محاولا من خلاله تقديم وصف عقلاني ورشيد لظاهرة اجتماعية مثل المدينة، يقوم أساسا على المنظور التاريخي والذي يسهم في إمكانية عقد مقارنات بين مدن مختلفة.

أما ابن خلدون، في تحليله لعملية التحضر، ميز ابن خلدون بين تحضر طبيعي وآخر سياسي، حيث يرتبط الأول بفئة البدو المزارعين الأقل تنقلا، وهذه الفئة من البدو هي التي تضاهي إلى حد كبير سكان المدينة، إذ أنها تتيح الانتقال الطبيعي من العمران البدوي إلى العمران الحضاري؛ حيث أن تجمعهم يقتضي ضرورة تأمين أمنهم، ولكي يتمكنوا من المدافعة على أنفسهم، يضطرون إلى بناء أسوار تصون أمنهم. وبهذا تكون قد تشكلت مدينة صغيرة داخل هذه الأسوار، "ومتى حصل على الرياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج إلى الدعة وأمكن نفسه إلى قيادة المدينة، وبالتدريج يتم تحسين وتطوير أدوات العمل فتشيد مدينة حقيقية." وشكل هذا التحضر يخضع لقانون التطور الذي يستلزم كثيرا من الوقت، حيث يتم الانتقال من النمط البدوي إلى النمط الحضري بصفة تدريجية.⁽⁵⁾

3 - التعريف بمدينة الأبيض سيدي الشيخ:

تقع في الجنوب الغربي (منطقة القصور) من الجزائر على السفوح الجنوبية لجبال الأطلس الصحراوي . وهي أكبر دائرة بولاية البيض، عرف المكان قديما باسم تانكيرت..... كما أنها كانت تتربع على أربعة قصور محصنة على شكل قلاع . تقع مدينة الأبيض سيدي الشيخ في الجنوب الغربي الجزائري، يحدها شمالا ولاية البيض، غربا ولايتي النعامة وبيشار . جنوبا ولاية أدرار أما شرقا فولاييتي الأغواط و غرداية .

تتربع مدينة الأبيض سيدي الشيخ على أربعة أحياء وهي :

1- الحي الشرقي : هو عبارة عن تجمع سكاني يقيم فيه قبائل أولاد سيدي الشيخ بالإضافة إلى أولاد سيد الحاج بوحفص و خدام أولاد سيد الحاج بوحفص . والذي يتوفر على قصر قديم له بوابة تدعى " ببوبة

سيدي الحاج بوحفص " بالقرب من ضريح الولي الصالح سيد الحاج بوحفص ، إلا أن هذا التراث الحضاري اندمل بفعل العوامل الطبيعية والإنسانية .

2- حي اليتامى : كان أغلبية سكانه يتامى لذا أطلق عليه هذا الإسم أما القبائل التي تقيم به هم : فرقة بن كامو وبن عطاء الله وبن الدين بالإضافة إلى فرقة الجرامنة وأولاد بلخديم وأولاد سيد النعيمي وأولاد سيدالحاج بحوص، كما أنها تحتوي على قصر قديم لكن هذا الأخير بفعل العوامل الطبيعية والبشرية اندثر .

3- الحي الغربي : يقيم به في الجهة الشمالية أولاد سيد الحاج أحمد وسيدي بن الشيخ وفي الجهة الشرقية بعض من الحميان وأولاد سيدي ابراهيم وأولاد سيد الحاج عبد الحاكم أما في الجهة الغربية فيقيم فيه أولاد مولاي يعقوب . ، كما أنها كانت تحتوي على قصرين قديمين " قصر أولاد سيد الحاج أحمد والقصر الغربي " لكن هذا الأخير بفعل العوامل الطبيعية والإنسانية اندثرا .

4- حي الشعب : بالنسبة لحي الشعب فأغلب سكانه نزحوا من المدن الخارجية أما القبائل التي تقطن به نجد أولاد عيسى ، أولاد زياد ، أولاد سيد الحاج بن عامر وآخرون.⁽⁶⁾

3 - 1 الخلفية التاريخية لنشأة المدينة:

يحدد مصطفى عباس الموسوي أربعة عوامل رئيسية لنشأة المدن العربية الإسلامية، وهي العامل الحربي، العامل الإداري والعامل السياسي والعامل الديني⁽⁷⁾، وبالرجوع لظروف نشوء مدينة الأبيض سيدي الشيخ يتضح أن نشأتها ارتبطت بالعامل الديني، حيث تحدد موضع المدينة - كنواة أولى للمدينة- بضريح الولي الصالح، حيث أن المدن الدينية تنشأ في الأغلب حول نواة صغيرة هي في الأصل حجر مقدس أو ضريح أو قبر، وتشكل هذه النواة أول مظهر لنشأة المدينة ثم تنمو أوجه النشاط الأخرى مع الزمن وتجذب السكان إليها تدريجيا، وينحصر كل النشاط المدني داخل هذا الإطار الديني الرئيسي⁽⁸⁾.

تحدد تأسيس مدينة الأبيض سيدي الشيخ بعد وفاة الأب الروحي لأولاد سيدي الشيخ في القرن 17م ، فبعد وفاة سيدي الشيخ سنة 1616 م حتى أصبحت القصور تشيد على شكل حصون متوزعة على أربعة (القصر الغربي - قصر أولاد سيد الحاج بحوص - قصر الرحامنة وقصر أولاد سيد الحاج أحمد) وتمرکز أولاد ومحبي ومجذوبي ومريدي الطريقة الشيعية بالأبيض سيدي الشيخ بها. ومن لم يستقر أصبح ملزما بالقدوم سنويا إلى الأبيض سيدي الشيخ لإقامة ركب سيدي الشيخ.

وهذا لا يعني أنها نشأت في هذا العهد فقط بل كانت قبل هذا تتوفر على مصلى وبئر أسسه سيدي

سليمان بن بوسماحة حوالي منتصف القرن التاسع هجري حيث كانت تعرف المنطقة باسم واحة تانكرية كانت تعتبر بوابة الطريق لقوافل المسافرين والتجار الرابط بين الشمال والجنوب، ما بين جبال القصور، الى غاية اقليم توات وكذلك الخط الرابط بين الغرب والشرق⁽⁹⁾ ، بحيث أصبح كل من البئر والمصلى مقر لقاء تجار الجنوب وتجار الشمال للتبادل التجاري بين سكان أتوات وسكان مدن التل كتيارت التي كانت مشهورة بالفلاحة. كما بدأ بعض مواطني أتوات وغيرها من التمرکز في السهل لممارسة الفلاحة، فنشأ أول قصر الغربي ثم تعاقب بناء قصور أخرى على فترات زمنية ، القصر الشرقي، قصر أولاد بودواية وأولاد سيد الحاج بن الشيخ على الضفة الغربية من السهل.

بعد وفاة الإبن البكر السيد الشيخ الحاج والذي دفن بالربوة الغربية بدأ نزوح تدريجي نحوها وبناء منازل متناثرة هنا وهناك فمارس هؤلاء السكان الفلاحة حيث أنشأوا أربعة قصور محصنة (القصر الغربي - قصر أولاد سيد الحاج أحمد - قصر الرحامنة - القصر الشرقي.

إلا أن هذه القصور حطمت من طرف الإستعمار الفرنسي خلال حملة الكولونيل نيقيري كرد فعل على الإنهزام الذي أصاب صفوف الجيش الإستعماري في معركة مولاق في 19 ماي 1881 على يد الشيخ بوعمامة.

بدأت مدينة الأبيض سيدي الشيخ تذكر في المناقب منذ القرن 17م أي خلال رحلة الإمام العياشي وكتاب أبوا بكر السكوني . ولما توفى سيدي الشيخ (عبد القادر بن محمد) والذي أوصى أن يدفن في هذه المدينة التي سميت بالأبيض سيدي الشيخ نسبة إليه رحمه الله.⁽¹⁰⁾

3 - 2 مراحل النشأة:

يتضح من خلال تسمية مدينة الأبيض سيدي الشيخ أنها تحمل شيقين الأول "الأبيض" وهي ترتبط بصفة تربة البئر الذي أنشأه الولي الصالح سليمان بن بوسماحة ، أما الشق الثاني من تسمية المدينة "سيدي الشيخ" فيرتبط بكنية الولي الصالح عبد القادر بن محمد بن سليمان بن بوسماحة ، وبالتالي يمكن التطرق لمرحلتين في مراحل نشأة المدينة ارتبط كلاهما برجال التصوف وكان لهم الدور المباشر في ظهور المدينة.

المرحلة الأولى: اختيار الموقع وبناء المصلى وحفر البئر

ترتبط هذه المرحلة بالرجل الصالح والعلامة سيدي سليمان المولود سنة 1461م بقرية الشلالة ، وهو بن بوسماحة (جد سيد الشيخ) يعد أكبر علماء البوبكرية واحد أحفاد سيدي معمر أبو العالية*، فهو خريج فاس وغرناطة، ومن أكبر علماء الحديث في عصره، من مؤلفاته الأسئلة الكتابية والأجوبة السماحية، كما

يعتبر أول من أدخل الحركة الصوفية للجنوب الغربي الجزائري سنة 1506⁽¹¹⁾ وهو أول من أقام بالأبيض بعد ما وقع اختياره للمنطقة "واحة تانكرت" والذي كان يقيم بضواحيها لمدة أربع سنوات بمنطقة أريا ، حيث كان يتردد على هذه الواحة الى أن بنى مصلى وحضر بجانبه بئرا .غير أنه لم يستقر بها ،فقد تميزت حياته بالتجوال في أماكن كثيرة من الأندلس وفاس و فتيق و الشلالة و اريا والأبيض وبوادي المنطقة. توفي ببني ونيف سنة 1539م.

يعتبر بناء البئر والمصلى (المسجد العتيق حاليا) من طرف سيدي سليمان بن بوسماحة خلال منتصف القرن الخامس عشر. أول نواة للمدينة، وقد ارتبطت تسمية "الأبيض" بصفة بياض تربة البئر، فتحديد هذا الموضع قد ارتبط منذ البداية بأحد رجال التصوف في المنطقة ، وقد شكل موضع البئر والمصلى نقطة التقاء التجار الوافدين من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال للجنوب.

كما لفت المكان أيضا انتباه سيدي بودخيل بعد سيدي سليمان، حيث أقام بالأبيض مدة غير معلومة . وبالتالي كان أول ظهور لمدينة الأبيض سيدي الشيخ في القرن 16م حيث كانت تسمى بالحاسي لببيض نسبة لوجود بئر ذا ماء وتربة بيضاء ، إلا أنه كان مقراً للقاء التجار ، وقد ذكر الماوردي من بين أهم شروط تأسيس المدن بناء المساجد بالإضافة إلى توفر المياه العذبة وتحسين الموقع من الأعداء.⁽¹²⁾

- المرحلة الثانية: تأسيس الرباط والزاوية ثم ظهور القصر

كان لاستقرار زاوية سيد الشيخ في الأبيض - بعد ارتحالها- بمثابة أول نواة عمرانية التفت حولها القصور من خلال استقطاب المريدين وسكان البدو الرحل من ضواحي المنطقة وخارجها في النصف الثاني من القرن 16م، فبعد ما وقع اختيار جده سيدي سليمان للموقع ببناء المصلى والبئر، جاء اختيار حفيده سيدي الشيخ مكملًا له باختياره مكانا للاستقرار بالزاوية التي ظلت مرتحلة لفترة من الزمن. ارتبطت تسمية "الزاوية" بمقر المرباط في حياته أو بعد مماته، حيث يتم تأسيسها من طرف المرباط بنفسه أو تأسس على ضريحه من طرف أتباعه، كما أنها حلت تدريجيا محل الرباط واستمرت في التطور وخلق وظائف جديدة حيث استقرت على وظائف عديدة جمعت بين العبادة والتعليم والتوجيه.⁽¹³⁾ ارتبطت زاوية سيد الشيخ بالأبيض التي اختارها مكانا للاستقرار وتأسيس الزاوية حوالي سنة 1580 بالقرب من المصلى والبئر الذي أنشأهما جده سيدي سليمان، والتي بدأها بمجموعة من الخيم ثم انجاز مبنى وتوسيع المصلى إلى ظهور أول قصر بالمنطقة (القصر الغربي) . فبعد تردد سيد الشيخ على عديد المناطق تجولا واستكشافا وعبادة، فمن فيتيق غربا إلى قسنطينة شرقا ومن المدن الساحلية بجاية ،وهران، الجزائر إلى مدن الجنوب بسكرة وتيميمون ، كما جال قصور المنطقة التي كان مقيما فيها صفصيفة، الشلالة، بوسمغون، بريزينة، مغرار ، والتي أسس في بعضها زوايا غير أنه لم يستقر بها لعدم تلبيتها طموحاته وبقي مشروع

تأسيس زاوية للتعليم والتربية والتوجيه يراوده بعد عدة محطات من التنقل والتجوال ، فبعده تركه لمدينة فيقيق التي لم تلق ترحابا لزاويته التي أسس بها زاويتين سنة 1560 بسبب معارضة أهلها ، كانت الوجهة العودة للمنطقة لتأسيس زاوية متنقلة بين البدو الرحل ، مكنته هذه الأخيرة من ذياغ صيته بين القبائل وأكسبته مكانة رفيعة، مما أدى إلى كثرة الوافدين والمريدين وهو ما دفع سيد الشيخ إلى اختيار مكان ثابت لزاويته ، وجاء الاختيار للأبيض حيث أنشأ الزاوية⁽¹⁴⁾ .

أدى استقرار الزاوية بعدما ذاع صيتها وانتشرت شهرتها إلى استقطاب السكان حول الزاوية ، بعدما قام سيد الشيخ بتوسعة المصلى الذي بناه جده سيدي سليمان، والذي لا يزال قائما إلى يومنا هذا وهو المسجد لعتيق ، كما قام بحضر بئر آخر شمال المصلى خاص بالزاوية وبقي البئر الآخر مجاورا للمسجد ، أدت التراكمات العمرانية لنشوء أول قصر بالمنطقة – القصر الغربي حاليا – وسمي بالقصر الأبيض.

✓ نسب سيدي الشيخ⁽¹⁵⁾

عبد القادر، المكنى بسيدي الشيخ، هو ابن محمد بن سليمان بن بوسماحة بن بوليلي (أو بن بلحيا) بن عيسى (أو بن عيسى بوليلي) بن معمر أبو العالوية، ولد سنة 1533م بالشلالة الظهرانية (ولاية البيض). توفى يوم الجمعة 19 ماي 1616م.

يعتبر سيدي الشيخ الابن الثاني لعائلة كثيرة العدد. إخوته المعروفون هم ابراهيم، دفين الأبيض س/ش وامحمد بن بودربالة وأحمد، دفين بوسمغون وكذلك الطاهر وعبد الرحمان. إحدى أخواته تزوجت ابن عمه سليمان، وهو ابن سيدي أحمد المجذوب، أما الأخت الأخرى فتزوجت يحيى ابن عمته، وهو ابن لالة صفية.

✓ رحلة سيدي الشيخ للتعلّم⁽¹⁶⁾

في بداية حياته، تتلمذ سيدي الشيخ على يد والده حيث تعلم منه أساسيات القراءة والكتابة. وتعلم القرآن الكريم تحت الخيمة المتنقلة، والتي باتت جزءاً لا يتجزأ من مخيم سيدي محمد بن سليمان. تضيف بعض المصادر أن الطفل كان تلميذا كذلك لعمه سيدي أحمد المجذوب وابن عمه سليمان بن أحمد والذي يكبره بحوالي ست سنوات.

عندما بلغ سيدي الشيخ السابعة من العمر، قاده والده الى الشيخ عبد الجبار الذي كانت له خلوة غير بعيدة عن قصر الشلالة الظهرانية. أن عائلة عبد الجبار وزاويتهم – وهم من فقيق المغربية – التي جاءها الطفل متعلما كانت تربطهم بعائلة البوبكرية علاقة وثيقة.

إضافة إلى دروسه بزاوية آل عبد الجبار، تابع سيدي الشيخ تعليمه أيضا بزاوية سكونية بقصر أوداغير التي أسسها الشيخ عبد الرحمن السكوني صاحب كتاب "المناقب". لاحقا ، وبحسب أحد المصادر غير المحققة، غادر سيدي الشيخ فقيق لبعض الوقت متجها الى فاس حيث أخذ عن عبد القادر الفاسي علوم القرآن والشريعة واللغة.

بعدها التحق سيدي الشيخ بزاوية سيدي محمد بن عبد الرحمان السهلي، وهي زاوية مشهورة تقع جنوب شرق المغرب. هناك تابع دروسه وتعمق في المذهب الصوفي للطريقة الشاذلية.

✓ العودة والاستقرار: (17)

في فترة عودته، وبعد إتمام دراسته، كان يبلغ سيدي الشيخ اثنان وعشرين عاما (نحو 1555م). ومادام الطريق يمر على فقيق توقف فيها لبعض الوقت ليزور زاوية آل عبد الجبار التي كان يتردد عليها في صباه، ويسأل عن احتمالات التوظيف أو امكانية الإقامة بها كما فعل جده سيدي سليمان بن بوسماحة قبله منذ ستين عاما عقب انتهاء دراسته في الأندلس والمغرب. لكن في الأخير لم يصل سيدي الشيخ لمبتغاه. بعد ذلك واصل الشيخ رحلته نحو الشمال أين وجد نفسه أخيرا في وسط اهله في الشلالة الظهرانية. ولكنه كان يحس أن مكانه ليس هنا...وبعد تفكير طويل قرر سيدي الشيخ الإقامة في منتصف الطريق بين فقيق والشلالة الظهرانية، في مغرار (جنوب العين الصفراء) حيث سينشئ زاوية هناك.

مهما يكن، وجد هذا المعلم المتحمس المكان ضيقا جدا حيث بدأ القلق يساوره وأخذ طموحه نحو تحقيق شيء آخر...تنقل سيدي الشيخ نحو كل الاتجاهات في بوادي المنطقة يلقي الوعظ ويصلي بالناس ويقدم المحاضرات في مختلف المواضيع وكان يستقبل المترشحين لطريقته؛ كان يتنقل نحو القصور مثل صفيصيفة، تيوت، بوسمغون، ربا التحتاني، ربا الفوقاني، الغاسول، ستين، بريزينة، جبال كسال وعمور. كما زار الشاب تسالة ومنطقة سيدي بلعباس ثم تلمسان أين كان هنه هو التوجه الى ضاحية العباد لزيارة ضريح سيدي بومدين، أحد شيوخ الطريقة الشاذلية.

3 - 3 مراحل إنشاء الزاوية:

قبل أن يأتي قرار سيد الشيخ بالاستقرار بزاويته بالأبيض عرفت تجربة إنشاء الزاوية ثلاثة مراحل:

- المرحلة الأولى: تمثلت في فترات تنقل سيد الشيخ في عديد المناطق محاولا بذلك إنشاء زاوية ابتداء من مغرار التي أسس فيها أول زاوية ثم مشرية، عين ماضي، تاسالة، ثم آخر تجربة بفقيق، وهي كلها زوايا تجريبية لم تلق طموحات سيد الشيخ. (18)

- المرحلة الثانية: بعد عودة سيد الشيخ من فيقيق قرر أن ينشئ زاوية متنقلة مع قوافل التجار والبدو الرحل ، حيث كانت الزاوية مشكلة بمجموعة من الخيم، والواقع أن الفكرة لم تكن جديدة بل طبقتها والده منذ عشرات السنين حيث كان يسافر موسميا مع زاويته في أماكن تخييم البدو الرحل. كان الحفيد سيد الشيخ أكثر البوبكرية الذين سبقوه خلال سبعة أجيال نزوحا للجنوب ، حيث اختار الأبيض التي أصبحت تسمى بعد وفاته بالأبيض سيد الشيخ.⁽¹⁹⁾

- المرحلة الثالثة: تعتبر أهم مرحلة حيث تم خلالها التأسيس الفعلي والاستقرار لزاوية سيدي الشيخ، فمع مرور الوقت ومع انتشار شهرة زاوية سيد الشيخ المتنقلة أخذ عدد الزوار العابرون ومريدو الطريقة في تزايد مستمر وكذا تلاميذ مختلف الأصقاع الذين كانوا يأتون لمتابعة دروس الشيخ ولدة طويلة. اضطر هذا الأمر الشيخ عبد القادر لانجاز بناءات جديدة تسمح باستقبال كل هؤلاء، وهكذا تحولت مؤسسة حاسي الأبيض إلى الزاوية الأم لسيدي الشيخ وظلت كذلك إلى هذا اليوم.

يبدو أن هناك سببين أحدهما ديني والآخر اقتصادي هما اللذان دفعا سيدي الشيخ إلى أن يستقر في الأبيض (التي ستقترن اسنها باسمه). بعد وفاة أبيه سنة 1569 وطد الشيخ عبد القادر من مكانته؛ فعلاوة على صفته كشيخ الزاوية الشاذلية أصبح رئيسا للسلالة البوبكرية ، فقد ذكر جياكوبيتي أن أب عبد القادر قد عينه وصيا على إخوته الطاهر، أحمد وعبد الرحمان وهو ما لم يعجب إخوته الكبار. من جهة أخرى توجد رواية أخرى أوردتها صاحب كتاب المناقب تتحدث عن احتجاج أبنائه الكبار لسيدي محمد بن سليمان بخصوص بعض الترتيبات المدرجة في الوصية، والتي جاءت لصالح أخيهم عبد القادر. غير أنه وما إن حلت سنة 1571 عقب وفاة صهره وعمه سيدي أحمد المجدوب، فكر الشيخ عبد القادر بجد في إنشاء زاوية مستقرة قرب حاسي الأبيض. لقد تفضل الشيخ عبد القادر إلى النتائج المثمرة من وراء إقامته في هذا الموقع الذي هو مكان عبور لجزء كبير من المبادلات التجارية بين المنطقة الوهرانية والصحراء وانطلاق خط مركزي (وادي الغربي) للمسارات الثلاث لقوافل المنطقة. وهذا يخص جميع النشاطات الاقتصادية للقبائل الرحل لهذا الجزء من الأطلس الصحراوي.

3 - 4 تأسيس زاوية الأبيض :

أمام عدم انصياع أهل فجيج لحكم الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد بخصوص مسألة الماء، وأمام العقلية المتحجرة للأعراب البدو وتعصب الفقهاء إلى الظاهر وعدائهم الأعمى والسافر لأهل التصوف،

ونظرا لإدراكه أيضا بأن نهاية الدولة السعدية قد قربت، وأن المنطقة ستكون عاجلا أم آجلا منطقة احتكاك وصراع، فقد أثر الابتعاد من فجيج إلى الحدود الشرقية، وقيل أنه كان ينوي الذهاب للعيش بعيدا في مكة المكرمة فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه في اليوم الرابع من فراقه فجيج فأشار عليه بالذهاب إلى الأبيض " الجزائر" وتأسيس زاويته هناك ومواصلة الجهاد، وأثناء طريقه مر على وادي الناموس وتلمسان ليستقر أخيرا بالحاسي الأبيض حيث أسس زاوية كبيرة وبنى أول قصر وهو القصر الغربي من القصور الستة المتواجدة هناك على بقعة أرضية تنازل له عنها شريف مغربي من ذرية الولي الصالح سيدي عبد القادر الجيلالي يدعى سيدي بودخيل وذلك في نهاية العقد الثاني من القرن الحادي عشر الهجري، واستمر رضي الله عنه في القيام بشؤون هذه الزاوية والتي كان لها هي الأخرى على غرار باقي زوايا بفجيج وغيره باع طويل في تلقين العلوم ونشر الطريقة الشيخية في أوساط القبائل من مختلف الجهات، وبموازاة مع ذلك استمر كعاداته في التصدي إلى المحتل الإسباني في عدة مناطق من الداخل والساحل كوهان ومليبية و مطغرة وتحديدًا بتبجريت على الساحل الشمالي للمغرب وغيرها من الجهات، إذ رابط على الجهاد على فرسه المعروفة ب: (الشهباء) لمدة تزيد على عشرين سنة. وإبان الحروب والقتال التي نشبت بين أبناء المنصور حول السلطة، كان ينتقل في منطقة جبال القصور بين وادي الناموس والشلالة الظهرانية متخذًا من تلك المنطقة قاعدة متقدمة لشن هجماته الجهادية ضد الإسباني.⁽²¹⁾

✓ من الزاوية إلى القصر:

تأسس أول قصر في تاريخ الأبيض من طرف سيد الشيخ مع نهاية القرن 16م ، عقب ما أجراه من توسيع المصلى وإنشاء بئر آخر - غير الذي حفره سيدي سليمان- خصصه للزاوية ، وهذا ما أدى لجذب الوافدين من ضواحي الأبيض من سكان البدو الرحل ، ومن خارج المنطقة كمريدين وزائرين ملتفين بذلك حول الزاوية وشيخها سيد الشيخ. كما بدأ بعض الوافدين بممارسة الفلاحة من سكان أتوات ، وتيارت . إن هذه الفئة من الوافدين بالإضافة للبدو الذين استقروا ومارسوا الزراعة مكنهم ذلك من الانتقال الطبيعي من العمران البدوي إلى العمران الحضاري - حسب ما فسره ابن خلدون في تحليله للتحضر الطبيعي- حيث أن تجمعهم يقتضي ضرورة تأمين أمنهم، ولكي يتمكنوا من المدافعة على أنفسهم، يضطرون إلى بناء أسوار تصون أمنهم. وبهذا تكون قد تشكلت مدينة صغيرة⁽²¹⁾. فالتراكمات العمرانية للسكان المستقرين والمتمركزين حول الزاوية أدت إلى ظهور أول قصر في تاريخ الأبيض والذي حمل اسم قصر الأبيض (القصر الغربي)، ثم القصر الغربي، وانتقل اسم المكان من الأبيض إلى قصر الأبيض⁽²²⁾، وتوالت التطورات العمرانية بمرور الوقت فظهر بعده بحوالي قرن ونصف القصر الشرقي ، ثم تلتها قصور أخرى كقصر أولاد بودواية وأولاد سيد الحاج بن الشيخ على الضفة الغربية من

السهل. والملاحظ أن عامل الجذب الرئيس لتمرکز السكان واستقرارهم بالمنطقة كان عاملاً دينياً كما أوضح فوستيل دي كولانج F.D.Coulanges حيث أكد أن النظام الديني يعتبر محدداً لتفسير نشأة ونمو المدن القديمة. كما تضافرت مع العامل الديني عوامل أخرى من توفر المياه والمسجد، فقد أوضح الماوردي شروط تأسيس المدن التي من أهمها بناء المساجد بالإضافة إلى توفر المياه العذبة وتحصين الموقع من الأعداء.⁽²³⁾

بعد وفاة الابن البكر السيد الشيخ الحاج والذي دفن باربا الغربية بدأ نزوح تدريجي نحوها وبناء منازل متناثرة هنا وهناك فمارس هؤلاء السكان الفلاحة حيث أنشأوا أربعة قصور محصنة (القصر الغربي - قصر أولاد سيد الحاج أحمد - قصر الرحامنة - القصر الشرقي).

إلا أن هذه القصور حطمت من طرف الاستعمار الفرنسي خلال حملة الكولونيل نيقريي كرد فعل على الانهزام الذي أصاب صفوف الجيش الاستعماري في معركة مولاق في 19 ماي 1881 على يد الشيخ بوعمامة.

تضمن التعريف الإجرائي الذي اعتمده محمد مفتاح للرباط في كتابة الخطاب الصوفي وهو أن الرباط: " عبارة عن موضع للعبادة، والجهاد، والاجتماع، أو مظلة لها، دائماً أو غالباً أو قليلاً". ويدخل ضمنه القصر حيث ذكر العديد من القصور واعتبرها مرادفة لكلمة الرباط.⁽²⁴⁾

✓ تأسيس المدينة الأبيض: بناء القصور والتطور العمراني:

تميزت الأبيض منذ تأسيسها بأنها مدينة الزاوية والتصوف خاصة بعد بناء القبة بها من طرف سيدي بن الدين، وبقيت محافظة على طابعها الثقافي الصوفي إلى غاية القرن العشرين، حيث نمت وازدهرت خلال القرون السابع عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر، بارتباطها بأكبر زاوية بالصحراء فقد أضحت عاصمة دينية في حركة ونشاط مستمرين من المريدين والزوار الذين يتوافدون على الزاوية الشيخية بالإضافة للزيارة الموسمية - الركب - التي تقام كل سنة خلال فصل الصيف.

كما كان للدور الجهادي ضد الغزاة من سيد الشيخ ضد الاحتلال الإسباني مروراً بأبنائه و أحفاده سيد الحاج بحوص، سيدي أبو حفص الحاج، سيدي بن الدين، إلى غاية الصوفي المجاهد الشيخ بوعمامة.

بقيت زاوية سيد الشيخ قائمة بالأبيض تقدم الإقامة للطلبة وعابري السبيل، وبقيت بهذا الوضع كزاوية أكثر منها مدينة ما يزيد عن ثلاثة قرون، إذ لم يتجاوز عدد سكانها الألف نسمة، فمنذ نشوء النواة الأولى الأبيض ببناء الزاوية ثم تشكل أول قصر - قصر الأبيض - الذي أسسه سيد الشيخ مع نهاية القرن 16م، تلاه تأسيس القصر الشرقي الذي بناه سيدي بن الدين مع بداية القرن 18م، وهما أكبر

القصور مقارنة بالقصور التي ظهرت فيما بعد ، أما القصر الثالث فهو قصر " دار الرحامنة" الذي أنشئ في نهاية القرن 18 م، ثم تم بناء قصر أولاد سيد الحاج احمد في نهاية القرن 18 م من طرف السي معمر بن الجيلالي وسيد الحاج الشيخ بن يوسف، أما آخر قصر تم بناؤه - وهو خامس القصور - فهو قصر أولاد سيدي بودواية الذي بناه سي بوبكر المازوز وسي بن زيان المازوزي مع بداية القرن 19 م. اكتسبت المدينة مكانة ونفوذ على المستوى الإقليمي بتميزها الصوفي مما أدى لاستقطاب المريدين والزوار.

الإحالات والهوامش:

- مصطفى عباس الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، دار الرشيد للنشر، العراق 1982، ص16.
- 2- السيد عبد العاطي السيد، علم الاجتماع الحضري، دار المعرفة، الإسكندرية، 2008، ص299.
- 3- السيد عبد العاطي السيد، مرجع سابق.
- 4 - محمد عاطف غيث، علم الاجتماع الحضري، دار المعرفة، الإسكندرية، 2006، ص35.
- 5- عبد الغني مغربي، الفكر السوسيولوجي عند ابن خلدون، دار القصة، الجزائر، 2006.
- 6 - <http://www.elabiodhsidicheikh.o-f.com>.
- 7 - مصطفى عباس الموسوي، مرجع سابق، ص56.
- 8 - مصطفى عباس الموسوي، مرجع سابق، ص159.
- 9- الطيب بن براهيم، إمارة الأبيض سيد الشيخ، دار صبحي للطباعة والنشر، غرداية، 2016، ص70.
- 10- <http://elboidhsidicheikh.alafdal.net/t25-topic>
- 11- الطيب بن براهيم، مرجع ، ص66.
- 12- بلغيث، محمد الامين.(1986). الربط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحدين. م ماجستير ، جامعة الجزائر، 1986، ص297.
- 13- فيلايلي مختار، نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، دار الفن الجرافيكي للنشر، باتنة 1976، ص27.
- 14- الطيب بن براهيم، مرجع سابق، ص110.
- 15- خليفة بن عمار، سيرة البوبكرية: سيدي الشيخ، ج2، مكتبة جودي مسعود، وهران، 2011، ص16.
- 16- خليفة بن عمار، مرجع سابق، ص17.
- 17- خليفة بن عمار، مرجع سابق، ص38- 43.
- 18- الطيب بن براهيم، مرجع سابق، ص163.
- 19- الطيب بن براهيم، مرجع سابق، ص68.
- 20- عبد الغني مغربي، مرجع سابق.
- 21- الطيب بن براهيم، مرجع سابق، ص110.
- 22- الربط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحدين، مرجع سابق، ص297.
- 23- محمد مفتاح، الخطاب الصوفي في المغرب الإسلامي، رؤية للطبع والنشر، القاهرة 2014، ص54.
- 24- الطيب بن براهيم، مرجع سابق ، ص201.